

1. مقدمة:

مما لا شكّ فيه أنّ الانفتاح المعرفي الذي شهده الدّرس الصّوتي العربي الحديث على الوافد الغربي، بمرتكزاته المنهجية والمعرفية، سمح له بتهيئة الأرضية العلمية المناسبة، لمعالجة الكثير من القضايا الصّوتية التراثية، وفقاً لمقاربة علمية ومنهجية رصينة، قامت على استلهاهم الرّصيد المعرفي للتراث العربي الأصيل من جهة، واستقطاب إنجازات الفكر اللّساني الغربي، بتصوّراته المنهجية وأدواته الإجرائية من جهة أخرى، فكان من نتاج هذا التّلاقى المعرفي، و التقاطع الفكري، توظيف الإمكانيات والوسائل الحديثة - وفي مقدّمها الحاسوب - في دراسة الظّاهرة اللّغوية عامة، والظّاهرة الصّوتية بخاصّة، بغية اختراق حدود التّنظير الوصفي في التعامل مع الظّاهرة الصّوتية، إلى رحاب المعاينة المختبرية والمعالجة الآلية للصّوت اللّغوي.

ومن بين القضايا الصّوتية التي شغلت الباحثين الأصواتيين قديماً ومحدثين، ظاهرتا "التّفخيم والتّرقيق" في العربية، فتناولوهما بالتفصيل تنظيراً وتطبيقاً، لا سيما علماء التّجويد والقراءات؛ الذين شرحوا الظّاهرتين، وبيّنوا العملية الفيزيولوجية المصاحبة لهما، وحدّدوا أصوات التّفخيم والتّرقيق ومراتبهما، فكانت دراستهم سندا معرفيا اتكأ عليه المحدثون ليبنّوا عليه نظريتهم الخاصّة بالتّفخيم والتّرقيق، إذ لم يقفوا عند حدود التّوصيف الذي طال الظّاهرتين، بل طرحوا إشكاليات جوهرية مثل قضية الصّوائت (الحركات) وحظّها من التّفخيم والتّرقيق، كما أخضعوا أصوات التّفخيم والتّرقيق للتّطبيق المختبري، وتوصّلوا إلى نتائج مبهرة تستحقّ الإشادة، وسنقوم من خلال هذا المقال بتتبع آراء النّحاة وعلماء التّجويد والقراءات، حول ظاهرتي "التّفخيم والتّرقيق" وأصواتهما، وما يصحبهما من عمليات فيزيولوجية أثناء النّطق بهما، معرّجين على آراء المحدثين وفرضياتهم فيما يخصّ الظّاهرتين، كما نتغيّا من خلال هذا المقال الإجابة عن الإشكالية الرّئيسة المتمثّلة في: هل التّفخيم والتّرقيق هما عبارة عن تجلّيات ألوфонية allophonic (صور نطقية متعدّدة)، أم هما عبارة عن فونيمات phonemes مستقلة قائمة بذاتها، غُيّبت في التّنظير الصوتي العربي القديم؟! وإذا قلنا فرضاً إنّهما تجلّيات ألوфонية، فهل تلحق هذه التّجليات الألوфонية بالصّامات (consonne) أم بالصّائت (voyelle)؟!.

2. التّفخيم والتّرقيق عند النّحاة وعلماء التّجويد والقراءات.

أ- المفهوم اللّغوي:

ورد مصطلح «التّفخيم» في المعاجم العربية بمعنى «التّعظيم والتّضخيم»، يقال: «فَخَمَ الشّيءُ يَفْخُمُ فَخامَةً وهو فَخْمٌ، عَبْلٌ، وَفَخَمَ الرجل، بِالضَّمِّ، فَخامَةً؛ أي ضَخَمَ، ورجل فَخْمٌ؛ أي عظيم القدر، وَفَخَمَهُ وَتَفَخَّمَهُ: أَجَلَّهُ وَعَظَّمَهُ ... والتّفخيمُ: التّعظيم، وَفَخَمَ الكلام: عَظَّمَهُ، ومنطق

فَخَمَّ جزل»¹، وجاء في تاج العروس «أنّ التّفخيم هو التّعظيم، يقال أتينا فلاناً ففخّمناه؛ أي عظّمناه ورفعنا من شأنه، والتّفخيم ترك الإمالة في الحروف وهو لأهل الحجاز، كما أنّ الإمالة لبني تميم»².

أمّا مصطلح «التّرقيق» فجاء بمعنى «الرّقّة والنحول والتّخفيف» فهو ضدّ التّفخيم والتّعظيم، جاء في تاج العروس أنّ «الرّقّة بالكسر الرّحمة، ومنه الحديث الشريف اغتنموا الدّعاء عند الرّقّة، فإنّها رحمة. يقال رقّ له، وفي حديث الحسن البصري، من رقّ لوالديه ألقى الله عليه محبّته، والرّقّة أيضا (الدّقة)، والتّرقيق تلطيف وتزيين»³، وجاء في اللّسان «أنّ الرّقيق نقيض الغليظ والثّخين، والرّقّة: ضدّ الغلظ ... وأرقّ الشّيء ورقّقه: جعله رقيقا، واسترقّ الشّيء: نقيض استغلظ»⁴.

ب- المفهوم الاصطلاحي:

ب- 1- عند النّحاة:

لو تتبعنا مسار المصطلح عند النّحاة القدامى، نجد أنّ مصطلح «التّفخيم» كان أقدم المصطلحات، وأكثرها شيوعا في أبحاثهم ودراساتهم عن هذه الظاهرة الصوتية، بدءا بسيبويه (ت180هـ) الذي تحدث عنه، عندّ ذكره للحروف المستحسنة في قراءة القرآن والأشعار، واصفاً به "الألف" في إحدى صورها النّطقية، بقوله: «وألف التّفخيم، يعني بلغة أهل الحجاز، في قولهم: الصّلاة والزّكاة والحياة»⁵، وقد اكتفى سيبويه بهذا الوصف للألف المفخّمة، دون أن يشرح معنى "التّفخيم" أو يفصّل فيه، وهو ما جرى عليه المبرّد (ت285هـ)⁶ بعده، ثم ابن جني (ت392هـ) من بعدهما، الذي شرح ألف التّفخيم مُبيّنا الفرق بينها، وبين ألف الإمالة، بقوله: «وأما ألف الإمالة (فهي) التي تجدها بين الألف والياء، نحو قولك في عالم وخاتم: عالم وخاتم. وأما ألف التّفخيم فهي التي تجدها بين الألف وبين الواو، نحو قولهم: سلامٌ عليك، وقامَ زيد. وعلى هذا كتبوا: الصّلوة والزّكوة والحيوة بالواو؛ لأنّ الألف مالت نحو الواو...»⁷، وهذه المقابلة بين صوتي "الألف المفخّمة" و"الألف الممالاة" نجدها لدى الزمخشري (ت538هـ) عند مقارنته بين لهجتي بني تميم، وأهل الحجاز، بقوله: «وبنوا تميم يميلون، وأما أهل الحجاز فلغتهم التّفخيم»⁸، ومعنى هذا أنّ التّفخيم والإمالة خاصيتان صوتيتان متقابلتان فيما بينهما.

وبالرّغم من أنّ النّحاة القدامى لم يتعرّضوا بالشرح والتفصيل لمصطلح "التّفخيم"، إلّا أنّهم ذكروا أصوات الاستعلاء (ص، ض، ط، ظ، غ، خ، ق) التي تتفاوت فيما بينها من حيث التّفخيم، وأصوات الإطباق (ص، ض، ط، ظ) التي هي- بالاتّفاق- أصوات مفخّمة تفخيما كلياً، وشرحوا العملية الفيزيولوجية المصاحبة لهما، يقول سيبويه: «فأما المطبقة فالصّاد، والضّاد، والطّاء، والظّاء ... وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهنّ انطبق لسانك من مواضعهنّ إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللّسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصّوت محصورٌ فيما بين اللّسان والحنك إلى موضع الحروف»⁹، وهذه إشارة إلى حركة اللّسان وشكله، أثناء النّطق بهذه الأصوات؛

حيث يرتفع اللسان باتجاه الحنك الأعلى فينطبق عليه، ممّا يجعل الصّوت محصوراً بين اللسان والحنك الأعلى وموضع هذه الأصوات. وقد شدّد سيبويه على ضرورة المحافظة على هذه الصّفة المميّزة، ألا وهي صفة "الإطباق" عند نطق هذه الأصوات الأربعة؛ وذلك لأنّ زوالها كفيلاً بإنتاج أصوات أخرى هي نظائرها من الناحية النطقية والسمعية، فقال: «ولولا الإطباق لصارت الطاء ذالا، والصاد سينا، والطاء ذالا، ولخرجت الضاد من الكلام؛ لأنّه ليس شيء من موضعها غيرها»¹⁰، ممّا يعني أنّ أهمّ ما يميّز هذه الأصوات الأربعة - بحسب سيبويه - عن نظائرها السمعية الأخرى، هي صفة (الإطباق أو التّفخيم)، وأيّ إخلال في نطق هذه السمة المميّزة أثناء نطق هذه الأصوات الأربعة، سيؤدّي إلى زوالها وتغييها من المنظومة النطقية العربية ككل.

ب- 2- عند علماء التّجويد والقراءات:

تأسيساً على ما خلص إليه علماء العربية من شرحهم لعمليتي "الإطباق" و"الاستعلاء"، حاول علماء التّجويد والقراءات أن يشرحوا أكثر هذه العلاقة، ويبيّنوا مدى صلتها الوثيقة بظاهرة "التّفخيم"، فجاء كلامهم أكثر دقّة وتفصيلاً في هذا الموضوع، يقول القرطبي (ت461هـ): «التّفخيم والإطباق والاستعلاء من واحدٍ واحد»¹¹، وقال أيضاً: «فصار التّفخيم في كونه انحصار الصّوت بين اللسان والحنك، نظير الاستعلاء والإطباق، ولهذا أثر الاستعلاء في الإمالة والترقيق فمنعهما؛ لأنّه ضدّ»¹²، وبَيّن الفرق بين هذه المصطلحات، بقوله: «والفرق بين الاستعلاء والإطباق وبين الترقيق والتّفخيم، أنّ الاستعلاء يلزم حروفه فلا يزول عنها، وكذلك الإطباق، بخلاف الترقيق والتّغليظ فإنّهما يتعاقبان على الرّاء واللام، كالإمالة والتّفخيم في الألف»¹³، ويقصد عبد الوهاب القرطبي بتعاقب التّفخيم والترقيق هنا، ذاك الذي يحدث في "اللام" و"الراء" - بخاصة - دون غيرهما من الأصوات؛ لأنّ "التّفخيم والترقيق" لا يتعاقبان على أصوات الإطباق والانتفاح، بل "التّفخيم" صفة ثابتة ملازمة لأصوات الإطباق (ص، ض، ط، ظ)، و"الترقيق" صفة لازمة لنظائرها المنفتحة (س، د، ت، ذ)، وأيّ تساهل في المحافظة على هذه السّمة النطقية والسمعية من طرف أبناء اللّغة، يقضي على هوية هذه الطائفة أو تلك، ويُقصيها من تشكيلة المنطوق العربي.

وأبرز علماء التّجويد والقراءات، الخاصيّة النطقية والسمعية التي يميّز بها كلّ من "التّفخيم والترقيق"، فالتّفخيم عند ابن الباذش (ت540هـ): «يعني ربو الحرف وتسمينه، فهو والتّغليظ واحد، وعكسه الترقيق من الرّقّة»¹⁴، ويقول محمّد المرعشي (ت1150هـ): «التّفخيم في الاصطلاح عبارة عن سَمَنٍ يدخل على جسم الحرف، فيمتلئ الفم بصداه، والتّفخيم والتّسمين والتّجسيم والتّغليظ بمعنى واحد. والترقيق عبارة عن نحولٍ يدخل على جسم الحرف فلا يمتلئ الفم بصداه. وحروف الاستعلاء كلّها مفخّمة، ولا يجوز تفخيم شيء من حروف الاستفالة إلا الرّاء واللام في بعض أحوالهما»¹⁵، أي إنّ التّفخيم عبارة عن تسمين الحرف وتجسيمه وتغليظه، ممّا يجعله أقوى من الناحية السمعية من

نظيره المرقق: الذي يدلّ على تنحيف الحرف، ليكون أضعف نسبياً من الناحية السمعية في مقابل نظيره المفخّم.

ب- 3- أصواتُ التفخيم والترقيق عند علماء التجويد والقراءات:

إنّ أغلب علماء التجويد والقراءات متفقون على أنّ أصوات التفخيم، هي أصوات الاستعلاء السبعة (ص، ض، ط، ظ، ق، غ، خ)، كما أجمعوا على أنّ أصوات الإطباق الأربعة (ص، ض، ط، ظ) أعلى تفخيماً من باقي أصوات الاستعلاء الأخرى، وهذا ما أكده ابن الطحان (ت561هـ) بقوله: «فالحروف المفخّمة سبعة، وهي: الطّاء، والظّاء، والخاء، والغين، والقاف، والصّاد، والضّاد. فهذه السبعة هي حروف الاستعلاء، مفخّمة بإجماعٍ من أئمة الأداء، وأئمة اللغة الذين تلقوها من العرب الفصحاء»¹⁶، وهذا ما نصّ عليه ابن الجزري (ت833هـ) أيضاً، عند حديثه عن صفات الحروف، بقوله: «ومنها الحروف المستفلة وضدها المستعلية؛ والاستعلاء من صفات القوة وهي سبعة يجمعها قولك: قط خص ضغط، وهي حروف التفخيم على الصّواب...»¹⁷، وما عدا هذه الحروف، فهي مرقّقة إلا الرّاء واللام؛ فإنّهما تفخّمان وترقّقان بحسب ما يجاورهما من الأصوات، في سياقاتهما التركيبية المختلفة، يقول ابن الجزري: «اعلم أنّ الحروف المستفلة كلّها مرقّقة، لا يجوز تفخيم شيءٍ منها إلا اللّام من اسم الله تعالى، بعد فتحة أو ضمة إجماعاً، أو بعد حروف الإطباق في بعض الروايات، وإلا الرّاء المضمومة أو المفتوحة مطلقاً في أكثر الروايات، والسّاكنة في بعض الأحوال»¹⁸؛ فأجمعوا على تفخيم (اللام) من لفظ الجلالة (الله) مع الفتحة والضّمة، وأجمعوا على ترقيقها مع الكسرة.

أمّا (الراء)، فقد أجمعوا على تفخيمها إذا «كانت مفتوحة، أو مضمومة إلا ما رقق ورش، أو كانت ساكنة. وترقّق إذا كانت مكسورة مثل (رزق)، أو ساكنة قبل ياء مثل (مريم)، أو جاءت بعد ياء ساكنة مثل (قدير)، أو كانت ساكنة بعد كسرة لازمة مثل (فرعون)»¹⁹، فهذه هي حالات تفخيم الرّاء وترقيقها، عند علماء التجويد والقراءات.

3. التفخيم والترقيق عند المحدثين.

1.3. في الاصطلاح والتعليل النطقي:

شاع في اصطلاح بعض اللغويين المحدثين استعمال مصطلح الإطباق Velarization ليدلّ على ظاهرة التفخيم Emphasis²⁰ وهو- في رأي سمير إستيتية- «ظنّ شائع قد لا يثمر شيوعه في إثبات صحته. فالفرق بين المصطلحين فرق كبير من الناحية النطقية. فالصوت المطبق هو الذي يتم إنتاجه: 1- بوضع اللسان في نفس موضعه عند نطق نظيره المرقق.

2- برفع ظهر اللسان باتجاه الطبق حتى يقترب منه جدّاً، مع ترك منفذ للهواء ضيق في منطقة الطبق نفسها ... هذه هي حقيقة الصوت المطبق من الناحية النطقية. ولكن هذا ليس شأن كلّ صوت

مفخّم، فاللّام المفخّمة التي في مثل لفظ الجلالة: (الله) لا يتم إنتاجها برفع اللّسان نحو الطّبق، بل نقيض ذلك هو الذي يحدث...»²¹: أي إنّ العلاقة بين الصّوت المطبق والصّوت المفخّم، ليست علاقة تساوي، بل هي علاقة عموم وخصوص مطلق، حيث إنّ «كلّ صوتٍ مطبقٍ مفخّم، وليس كلّ مفخّمٍ مطبقاً»²².

ورأى سلمان العاني أنّ منطقة الطّبق ليست المنطقة الوحيدة المسؤولة عن إنتاج الأصوات المطبقة، بل تشترك منطقة الحلق أيضاً في إنتاجها، ولذلك رأى أنّ وصفها بالأصوات الحلقية Pharyngealized أنسب من وصفها بالأصوات المطبقة Velarized²³، وقد شرح أحمد مختار عمر ظاهرة " التّفخيم " مبيناً الفرق بين استعمال مصطلحي " الإطباق " و " التّحليق "، بقوله: « التّفخيم معناه ارتفاع مؤخّر اللّسان إلى الأعلى قليلاً في اتّجاه الطّبق اللّين، وتحركه إلى الخلف قليلاً في اتّجاه الحائط الخلفي للحلق. ولذلك يسميه بعضهم « الإطباق » velarization بالنّظر إلى الحركة العليا للّسان. ويسميه بعضهم « التّحليق » pharyngalization بالنّظر إلى الحركة الخلفية للّسان»²⁴. وذهب محمد علي الخولي إلى أن « التّفخيم سمة تصاحب نطق الصّوت، وتنشأ عن ارتفاع مؤخّر اللّسان إلى أعلى نحو الطّبق، وتراجعه إلى الخلف نحو الحلق. ولهذا يدعى التّفخيم إطباقاً أو تحليقاً، ويدعى الصّوت مفخّماً أو مطبقاً أو محلّقاً»²⁵ بالنّظر إلى وضعيته النّطقية أو السمعية.

2.3. أصوات التّفخيم والتّرقيق ومراتهما عند المحدثين:

أ- الصّوامت les consonnes:

لم يختلف المحدثون مع القدماء حول عدد الأصوات المفخّمة، والأصوات المرقّقة ومراتهما، فجاء تقسيمهم للأصوات الصّامّة من حيث التّفخيم والتّرقيق، على النّحو الآتي²⁶:

- أصوات مرقّقة بشكل دائم: وهي أصوات الاستفال جميعها، ماعدا (الرّاء)، و(اللام).
- أصوات مفخّمة بشكل دائم: وهي أصوات الاستعلاء السبعة (خص ضغط قظ)، وهي على قسمين:
 - أ- أصوات كاملة التّفخيم، أو مفخّمة من الدرجة الأولى، وهي: الصّاد والضّاد والطّاء والظّاء.
 - ب- أصوات ذات تفخيم جزئي، أو مفخّمة من الدرجة الثانية، وهي: الخاء والغين والقاف.
- صوت يفخّم في مواقع، ويرقّق في مواقع، وهو الرّاء، و(اللام).

ب- الصّوائت les voyelles:

ذهب بعض المحدثين أمثال كمال بشر إلى أنّ الصّوائت les voyelles تابعة للصّوامت: فهي «لا توصف بتفخيم أو ترقيق بذاتها، إنّما يعود تفخيمها وترقيقها إلى السياق. وهذا ينطبق بتمامه على كلّ الحركات. الفتحة والكسرة والضّمة، سواء أكانت قصيرة هذه الحركات أم طويلة»²⁷، وتدعيماً لفرضيته، ساق بعض الأمثلة مُقارناً فيما بينها، مثل: صَبْر × سَبْر - طَاب × تَاب / صِرْ × سِرْ - طِين × تِين / صُم × دُم - صُورَة × سُورَة²⁸، ليستخلص في الأخير « أنّ التّفخيم والتّرقيق في هذه الحركات راجع إلى

تأثرها بما يجاورها من أصوات، فهي مفخّمة في سياق التّفخيم ومرفّقة في سياق التّرقيق»²⁹، امتثالاً لقوانين المجاورة الصّوتية. كما أقرّ كمال بشر في الوقت ذاته أنّ حالات التّفخيم والتّرقيق في الحركات les voyelles، ما هي إلا تجليات أوفونية³⁰ allophonic للحركات الست الرّئيسة، بمعنى أنّها صور نطقية تتجلّى في ثماني عشرة حالة³¹، موزّعة على الحركات الست، حيث تأخذ كلّ حركة من هذه الحركات الست، ثلاث صور نطقية من حيث التّفخيم والتّرقيق، وحالة ثالثة هي متوسّطة (بين التّفخيم والتّرقيق)، على النّحو الآتي:

- 1- حالة تفخيم، مع أصوات الإطباق (ص، ض، ط، ظ).
- 2- حالة متوسطة بين التّفخيم والتّرقيق، مع أصوات (ق، غ، خ).
- 3- حالة ترقيق، مع الأصوات المرفّقة (مع باقي الأصوات، ماعدا أصوات الاستعلاء السبعة).

إنّ الطرح الذي قدّمه كمال بشر حول الحركات العربية، الذي خلص إلى أنّ " التّفخيم والتّرقيق" في الحركات العربية، ليس إلا تجليات أوفونية (صور نطقية متعددة) لل fonèmes (الحركات) الست الأساسيّة، هو الطرح نفسه تقريباً الذي نجده عند سمير إستيتية، حيث تساءل في بداية الأمر فيما إذا كان للحركات المفخّمة وجود صوتوني (فونيمي phonemic)³² مستقل في العربية؟³³، أم أنّها مجرد تجليات أوفونية allophonic؟، ليجيب عن تساؤله قائلاً إنّ: «الحركة المفخّمة في العربية الفصحى ليس لها وجود مستقل عن الأصوات المطبقة أو المفخّمة. ومعنى ذلك، أنّ الحركات المفخّمة، على كثرة ورودها في العربية الفصحى، ليس لها وجود صوتوني (فونيمي)»³⁴، ولتوضيح فكرته، قدّم الأمثلة الآتية³⁵: طَبَعَ - صَبَرَ - قَصُرَ - طَبِيَ، ... ليستنتج في الأخير أنّ «الحركات المفخّمة في الأمثلة السابقة، مسبوقة أو متبوعة بصوت مطبق أو مفخّم. وهذا هو السبب في ورود هذه الحركات مفخّمة»³⁶، بمعنى أنّ السياق الصوتي الذي وردت فيه هذه الحركات، هو الذي أكسبها صفة التّفخيم إثر مجاورتها لأصوات الاستعلاء المفخّمة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى - يضيف سمير إستيتية- أنّ الذي أدّى إلى تغيير الدلالة في كلمتي (صَبَرَ/ سَبَرَ)، هو التّفخيم في الصّاد، والتّرقيق في السّين. أمّا كون الفتحة مفخّمة في (صَبَرَ)، ومرفّقة في (سَبَرَ)، فليس له دور في تغيير دلالة إحدى الكلمتين عن الأخرى، وهذا ما معناه أنّ الحركة المفخّمة في العربية الفصحى، إنّما هي متغيّر تابع لا مستقل³⁷. وهذا افتراض لا يسلم - في نظرنا - قبل التّسليم به، من المسألة والمباحثة العلمية، نشير إليهما في التّعقيب الآتي.

4. تعقيب وتعليل:

إنّ إسقاط المقاربة الوظيفية Fonctionnelle لمفهوم الفونام phonème على المثالين السابقين (صَبَرَ/ سَبَرَ)، اللّذين قدمهما سمير إستيتية، حيث لاحظ أنّ الذي أدّى إلى تغيير الدلالة في الكلمتين، إنّما هو تفخيم الصّاد في الأولى وسلْبُهُ في الثانية، لا تفخيم الفتحة وترقيقها. ومن هنا، حُكِمَ بفونيمية

الصّاد والسّين، وعَرَضِيَّة الفتحَتَيْن (المفخّمة والمرقّقة) عَادًا إياهما أَلُفُونِين لِفُونَام (الفتحة). وهذا طَرَحُ خالفه فيه برتيل مالمبرج B. Malmberg - ونحن معه- إذ يرى أنّ للتّفخيم أثرًا في اختلاف المعنى حين يكون في الفتحة³⁸ أيضًا؛ لأنّه «يصعب من النّاحية النّطقية أن تحلّ الفتحة المرقّقة محلّ الفتحة المفخّمة، والعكس، ففي الفعلين (طاب - تاب) تعتبر الفتحة بطابعها شرطًا في دلالة الكلمة على معناها؛ أي: أنّ الاختلاف بين الكلمتين في حرفين لا في حرف واحد»³⁹، وبالتالي فالفتحة المفخّمة وأختها المرقّقة فونيمان مستقلان لا تنوّعان أَلُفُونِيَان، وخصّ مالمبرج (الفتحة) دون أختها (الكسرة والضمة)؛ لأنّ التّفخيم فيهما ضئيل مقارنة بأختهما الفتحة⁴⁰، ومن ثمّ كانت الحركات عند برتيل مالمبرج أربع حركات قصارا، ومثلها طولا: فتحة مرقّقة (a)، وفتحة مفخّمة (ā)، وكسرة خالصة (i)، وضمة خالصة (ou)⁴¹، ومثلهنّ طوال.

ولئن كنّا نتفق على أنّ "التّفخيم" صفة لازمة لأصوات الإطباق الأربعة، وأنّ "الترقيق" صفة لازمة لأصوات الاستفال المرقّقة، الأمر الذي جعل الباحثين الأصواتيين؛ قدماء ومحدثين، يقرّرون أنّ "التّفخيم والترقيق" في هذه الحالة بالذات؛ هما صفتان ألحقنا بصوامت الإطباق، ونظائرها من صوامت الاستفال، لا بالصّوائت المرافقة لهما. فإنّنا نختلف معهم تماما في صوتي (اللام) و(الراء)، إذ لا يوجد لهما نظائر مرقّقة، سوى من جنسهما. فكيف إذن، نفسّر تفخيم اللّام تارة، وترقيقه تارة أخرى؟! والحال نفسها تنطبق على صوت (الراء).

فلو تأملنا في المثالين الآتيين (والله wallāh) و(ولاه wallah)⁴²؛ أي أعطاه ولاية، نجد أنّ الاختلاف الصّوتي الوحيد بين البنيتين la structure phonémique يكمن في تفخيم صائت الفتحة (ā) في الكلمة الأولى، وترقيقه (a) في الكلمة الثانية⁴³، ممّا أدّى إلى تغيير دلالة الكلمتين، وبالتالي تكون الفتحتان (المفخّمة والمرقّقة) في المثالين السابقين فونيمين مستقلّين، لا تنوّعين أَلُفُونِيَيْن. يدلّنا على ذلك الدراسة المختبرية لصامت اللّام في حالته التّفخيمية إلى جوار صائت الفتحة (قصيرة وطويلة) في اللفظتين السابقتين، حيث أخذ فونام اللّام «ثلاثة معالم هي: المعلم الأول ومقداره 250 د/ثا، والمعلم الثاني 900 د/ثا، والمعلم الثالث 2400 د/ثا، والمعلم الثاني للفتحة القصيرة بجوار اللّام المفخّمة هو 1250 د/ثا، وبجوار الفتحة الطويلة 1150 د/ثا»⁴⁴، في حين تتجه القيم إلى أدنى في حالة التّرقيق - وبخاصة- مع صائت الفتحة بنوعيهما (القصيرة والطويلة)، وهي قيم نقرؤها من خلال معلم الحزمة الصوتية لكل تصويت⁴⁵ formant، على شاشة الراسم الطيفي le spectrographe.

أمّا صوت (الراء)، فهو لا يقع في تقابل دلالي مع كلمة أخرى في سمة "التّفخيم والترقيق" مثل (اللام)، وبالتالي نتفق في أنّ الحاصل فيه من تفخيم وترقيق؛ إنّما هو تغير أَلُفُونِي، وفقًا للمقاربة الوظيفية fonctionnalisme في مفهوم الفونام، التي تشترط فيه أن يدخل في تضاد (تقابل) فونولوجي واحد، يمكنه تغيير الدلالة، حتى نقول عنه أنّه فونام. لكنّ السؤال المطروح هو: أنّ هذا

التغيّر الالفوني الحاصل، هل ألحق بصامت (الراء) أم بالحركة المرافقة له؟! وإذا تأملنا في الآية الكريمة، من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة يوسف/24). نجد أنّ كلمة (رَءَا) قرأت بتفخيم الراء (rā) برواية حفص عن عاصم، وقرأت بترقيقه (ra) برواية ورش عن نافع، مع أنّ الكلمتين متحدتان ومتماثلتان صوتياً ودلالياً، ما عدا التغيّر الالفوني الذي حدث - في نظرنا - في صائت الفتحة المفخّمة (ā) من كلمة (رَءَا) برواية حفص، وصائت الفتحة المرقّقة (a) من نفس الكلمة، برواية ورش، وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن الكريم، ممّا يؤكّد لنا أنّ التّفخيم والتّرقيق؛ هو تغيّر ألفوني allophonic - في صوت الراء بالذات - ألحق بصائت الفتحة (a/ā) المرافق لصامت الراء، لا بصامت الراء نفسه؛ لأنّ الراء هي نفسها في الكلمتين، والمتغيّر هو صائت الفتحة المفخّمة (ā)، ونظيرتها المرقّقة (a).

5. نتائج البحث:

- من خلال ما تقدّم ذكره في هذه الورقة، يمكننا أن نقف على جملة من النتائج، نبرزها في النقاط الآتية:
- التّفخيم Emphasis هو ظاهرة أصواتية ناتجة عن حركات عضوية، تغيّر من شكل حركات الرّنين بالقدر الذي يعطي الصّوت، هذه القيمة الأصواتية المفخّمة.
 - ينشأ التّرقيق l'atténuation عن عدم تراجع مؤخّرة اللّسان، بحيث لا يضيق فراغ البلعوم الفموي عند النّطق بالصّوت المرقّق.
 - تنقسم الأصوات اللّغوية من حيث التّفخيم والتّرقيق، إلى أصوات مرقّقة بشكل دائم: وهي أصوات الاستفّال جميعها، ماعدا (الراء)، و(اللام). وأصوات مفخّمة بشكل دائم: وهي أصوات الاستعلاء السبعة (خص ضغط قظ)، وهي على قسمين:
 - أ- أصوات كاملة التّفخيم، وهي: الصّاد والضّاد والطّاء والظّاء.
 - ب- أصوات ذات تفخيم جزئي، وهي: الخاء والغين والقاف.
 - وصوت يفخّم في مواقع، ويرقّق في مواقع، وهو (الراء)، و(اللام).
 - تنوع الصّوائت العربية من حيث التّفخيم والتّرقيق، إلى ثماني عشرة حالة موزعة على الحركات الست؛ حيث تأخذ كل حركة من الحركات الست، ثلاث صور نطقية (مفخّمة، ومرتّقة، وبين بين).
 - الحركات المفخّمة الملازمة لأصوات الإطباق، هي فونيمات مستقلة لا تنوعات ألفونية.

- التّفخيم والتّرقيق في (اللام) يلحق بالصّائت المرافق لها، لا باللام نفسها، فالتغير الدلالي الذي حدث في المثالين (والله wallāh) و(ولاه wallah)، سببه تفخيم الفتحة (ā) في الكلمة الأولى، وترقيقها (a) في الكلمة الثانية، ومن هنا، كانت الفتحتان (المفخمة والمرفقة ā/a) فونيمين مستقلّين لا تنوعين ألفونيين.

- التّفخيم والتّرقيق في (الراء) هو تغيّر ألفونى allophonic ألحق بصائت الفتحة (a/ā) المرافق لصامت الراء، لا بصامت الراء نفسه؛ لأنّ الراء (r) واحد في المثالين السابقين.

الهوامش:

- ¹ - ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ت711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة (فخم)، ج12، ص449.
- ² - الزبيدي (السيد محمد مرتضى الحسيني ت1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، مادة (فخم)، فصل الفاء، من باب الميم، ج9، ص10.
- ³ - الزبيدي، تاج العروس، فصل الراء، من باب القاف، ج6، ص358.
- ⁴ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (رق ق)، ج10، ص121، 125.
- ⁵ - سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت180هـ)، 1988م، الكتاب، تح وشر: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، ج4، ص432.
- ⁶ - المبرّد (أبو العباس محمد بن يزيد ت285هـ)، 1994م، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ج3، ص46.
- ⁷ - ابن جني (أبو الفتح عثمان ت392هـ)، 1993م، سر صناعة الإعراب، دراسة وتح: حسن هنداي، دار القلم، دمشق، سورية، ط2، ج1، ص50.
- ⁸ - الزمخشري (أبو القاسم محمود جار الله ت538هـ)، 1982م، أساس البلاغة، المطبعة الوهبية، القاهرة، د ط، ص336.
- ⁹ - سيبويه، الكتاب، ج4، ص436.
- ¹⁰ - سيبويه، الكتاب، ج4، ص436.
- ¹¹ - القرطبي (عبد الوهاب بن محمد ت461هـ)، 2000م، الموضح في التّجويد، تح: غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، ص179.
- ¹² - القرطبي، الموضح في التّجويد، ص110.
- ¹³ - القرطبي، نفسه، ن ص.
- ¹⁴ - ابن الباذ (أبو جعفر أحمد بن علي ت540هـ)، 1983م، الإقناع في القراءات السبع، تح: عبد المجيد قطاش، دار الفكر، دمشق، ط1، ج1، ص324.
- ¹⁵ - المرعشي (محمد بن أبي بكر ت1150هـ)، 2008م، جهد المقل، تح: سالم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، ص153، 154.

- ¹⁶ - ابن الطحان (أبو الأصبع السمائي ت561هـ)، 2008م، الإنباء في أصول الأداء، تح: حاتم صالح الضامن، مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات، ط1، ص40.
- ¹⁷ - ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج1، ص202.
- ¹⁸ - ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج1، ص215.
- ¹⁹ - ينظر: ابن الطحان، الإنباء في أصول الأداء، ص24. (بتصرف).
- ²⁰ - ينظر: سلمان حسن العاني، 1983م، التشكيل الصوتي في اللغة العربية، تر: ياسر الملاح، مر: محمد محمود غالي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، ص71.
- ²¹ - سمير شريف إستيتية، 2003م، الأصوات اللّغوية: رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، ص143، 144.
- ²² - ينظر: سمير إستيتية، نفسه، ص144.
- ²³ - ينظر: سلمان حسن العاني: التشكيل الصوتي في اللغة العربية، ص71.
- ²⁴ - أحمد مختار عمر، 2006م، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، ط4، ص326.
- ²⁵ - محمد علي الخولي، 1987م، الأصوات اللغوية، مكتبة الخريجي، الرياض، ط1، ص214.
- ²⁶ - ينظر: أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص325، 326. (بتصرف). وينظر: كمال بشر، 2000م، علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ط، ص395-404.
- ²⁷ - كمال بشر، علم الأصوات، ص409.
- ²⁸ - ينظر: كمال بشر، نفسه، ن ص.
- ²⁹ - كمال بشر، نفسه، ن ص.
- ³⁰ - Allophone هو التنوعات الصوتية التي يتحقق بها الفونيم ويتوقف ذلك على موقع الصوت في الكلمة وعلى الأصوات المجاورة. أو هو صور نطقية متعددة لفونام واحد، أو هو عبارة عن أعضاء أو أفراد الفونام الواحد، مثل: صوت النون الأسناني، والطبقي، واللثوي؛ التي هي أَلُفُونَات لفونيم (النون). ينظر: ماريو باي، 1998م، أسس علم اللغة، تروبع: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط8، ص88.
- ³¹ - ينظر: كمال بشر، علم الأصوات، ص462، 463، 464.
- ³² - Le phonème: الفونام عند المدرسة الوظيفية هو «أصغر وحدة صوتية، يمكن عن طريقها التّفريق بين المعاني»، والنسبة بينه وبين الألفون هي نسبة «الكل والجزء»؛ أي إنّ الألفون هو أحد أجزاء الفونام، أو أحد أعضائه. ينظر: أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص179.
- ³³ - ينظر: سمير شريف إستيتية، الأصوات اللّغوية: رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، ص148.
- ³⁴ - سمير إستيتية، نفسه، ن ص.
- ³⁵ - ينظر: سمير إستيتية، نفسه، ن ص.
- ³⁶ - سمير إستيتية، نفسه، ن ص.
- ³⁷ - ينظر: سمير إستيتية، نفسه، ص149.
- ³⁸ - ينظر: برتيل مالمبرج، علم الأصوات، تعريب ودراسة: عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، دط، دت، ص77.

³⁹ - برتيل مالمبرج، نفسه، ص78.

⁴⁰ - ينظر: برتيل مالمبرج، نفسه، ص78، 77.

⁴¹ - ينظر: برتيل مالمبرج، نفسه، ص78، 79.

⁴² - ينظر: سلمان حسن العاني: التشكيل الصوتي في اللغة العربية، ص78.

⁴³ - ينظر: بوداود براهيمى، 2012/2011، فيزياء الحركات العربية بين تقديرات القدامى وقياسات المحدثين، قسم

اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، ص132.

⁴⁴ - سلمان العاني، التشكيل الصوتي في اللغة العربية، ص78.

⁴⁵ - ينظر: بوداود براهيمى، فيزياء الحركات العربية بين تقديرات القدامى وقياسات المحدثين، ص134.